



المعجزات والكرامات من منظور السنن الإلهية والكونية

Miracles and Sainly Wonders through the Lens of Divine and Cosmic Laws

أنيسة بنعيم سحطان*

جامعة عبد المالك السعدي (المغرب)

Bennaimeanissa@gmail.com

تاريخ النشر: 2026.03.15

تاريخ القبول: 2026.01.12

تاريخ الاستلام: 2025.08.29

ملخص:

يبحث هذا المقال في العلاقة بين المعجزة والكرامة والسنن الإلهية والكونية كما يعرضها القرآن الكريم، انطلاقاً من إشكالية مفادها: هل تخضع المعجزة والكرامة لمنطق السنن الإلهية أم تتجاوزها؟ ويهدف المقال إلى توضيح موقع هذه الخوارق ضمن التصور السنني، وإبراز أثره في ضبط المفهومين وفهم دلالاتهما العقدية. وقد اعتمد البحث المنهج الوصفي الاستقرائي التحليلي، من خلال جمع النصوص القرآنية والاقتراسات العلمية ذات الصلة، ثم تحليلها لاستنتاج القواعد السننية الحاكمة. خلص المقال إلى أن المعجزة والكرامة وإن كانتا خارقتين للعادة، فهما لا تخرجان عن نطاق السنن الإلهية الجارية، بل تؤدّيان وظائف محددة في تصديق الرسالة وبيان كرامة الصالحين، دون تعارض مع منطق الأسباب والقوانين الإلهية في الكون.

الكلمات المفتاحية: السنن الإلهية الكونية، المعجزات، الكرامات

Abstract:

This article examines the relationship between miracles and saintly wonders (karāmāt) and the divine and cosmic laws (sunan) as presented in the Qur'an. It addresses the central question of whether miracles and karāmāt operate within the framework of divine laws or transcend them. The study aims to clarify the position of these extraordinary phenomena within the Qur'anic concept of divine causality and to highlight their theological implications. Methodologically, the article employs a descriptive, inductive, and analytical approach through the collection and examination of relevant Qur'anic passages and scholarly discussions. The findings reveal that, although miracles and karāmāt constitute extraordinary events, they do not fall outside the scope of divine laws; rather, they serve specific functions, such as confirming prophetic missions and honoring the righteous, without contradicting the principles of causality established by God in the universe.

Keywords: Divine and cosmic laws, miracles, saintly wonders.

* المؤلف المراسل.

1. مقدمة

يُمثّل موضوع المعجزة والكرامة إحدى القضايا العقدية المرتبطة بخوارق العادات، وقد حظي باهتمام العلماء عبر العصور، وتباينت حوله المواقف بين الإثبات والإنكار. وينصبّ هذا البحث على دراسة المعجزة والكرامة من زاوية ارتباطهما بسنن الله الإلهية والكونية، بعيداً عن المداخل التقليدية التي تناولت الخوارق من جهة أنواعها وشروطها وخلافاتها الكلامية. وينطلق هذا التوجّه من فرضية مفادها أنّ المنظور السنني في القرآن الكريم يتيح فهماً أكثر اتساقاً للظواهر الخارقة ضمن بنية عقدية لا تُعطّل قوانين السبب والمسبّب، ولا تنفي خرق العادة عند مقتضى الحكمة الإلهية.

وتبرز أهمية هذا البحث في ندرة الدراسات التي حاولت الربط بين مفهوم السنن الإلهية وبين المعجزة والكرامة، إذ انصبّ معظم الإنتاج العلمي على المقاربة اللغوية والمصطلحية أو على الخلافات الكلامية دون النظر إلى الخوارق ضمن إطار السنن. كما أن تحليل هذه العلاقة يسهم في بناء تصور يُخرج الظواهر الخارقة من ثنائية التعارض بين الخارق والعادي، ويُدرجها ضمن منظومة الأسباب والقوانين الربانية التي تضبط الكون والحياة. وقد جاء اختيار الموضوع استجابة لهذه الفجوة المعرفية، ومحاولةً لبلورة قراءة سننية للمعجزة والكرامة تستند إلى النص القرآني.

وتتمحور إشكالية البحث في السؤال الآتي: هل تخضع المعجزة والكرامة لسنن إلهية ثابتة أم تتجاوزها؟ وينبثق عن هذه الإشكالية هدفٌ رئيس يتمثّل في استكشاف الإطار السنني الذي ينتظم الظاهرة الخارقة، مع أهداف فرعية أهمها:

- استجلاء القوانين العامة التي تحكم الكون والحياة، وبيان علاقتها بخوارق العادات.
 - إبراز موقع السنن الإلهية في توجيه الفعل الإنساني وموقعها في البناء العقدي.
 - وقد اقتضت طبيعة البحث اعتماد ثلاثة مناهج متكاملة، هي:
 - المنهج الوصفي في ضبط المفاهيم المركزية كالسنن الإلهية والمعجزة والكرامة.
 - المنهج الاستقرائي في تتبع النصوص والمصادر.
 - المنهج التحليلي في مناقشة المادة المستقرأة واستخلاص النتائج.
- الدراسات السابقة:

تطرقت عدّة دراسات مفهوم السنن الإلهية من زوايا متباينة، ويمكن إجمال أبرزها فيما يلي:

1. دراسة شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب:

السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان في العقيدة والسلوك. ركزت هذه الدراسة على تتبع السنن الإلهية في القرآن والسنة، وبيان أثر الإيمان بها على سلوك الإنسان. وقد اعتمد الباحث المنهج الاستقرائي التحليلي في جمع النصوص وتصنيفها واستخلاص خصائص السنن ونتائجها على الواقع

الإنساني. أسهمت الدراسة في توسيع البعد السلوكي والإيماني للسنن، غير أنها لم تتناول علاقة السنن بظواهر الخوارق (المعجزات والكرامات)، وهو ما يشكل فجوة معرفية بالنسبة لموضوع هذا المقال.

2. دراسة مجدي محمد عاشور:

السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم: أصول وضوابط. وهي أطروحة دكتوراه تناولت السنن من جانبين: نظري (تعريفها وأقسامها وضوابط استخراجها)، وتطبيقي (سنن الابتلاء، النصر، الهلاك، الجزء...). وقد شكّلت الدراسة مرجعاً مهماً في ضبط المفهوم وتقعيده، إلا أنها ركزت على السنن الجارية في الاجتماع البشري ولم تربطها بالخوارق أو بخلفياتها العقدية، وهو ما يميز موضوع هذا البحث.

3. دراسة رشيد كهوس:

علم السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي. قدّم المؤلف معالجة موسعة لمفهوم السنن الإلهية من حيث التأصيل والمقاصد والمنهج، مع رصد حضور السنن في النص القرآني والسنة والسيرة. وتعدّ من الدراسات الشاملة في هذا الباب من جانب البناء والمنهج، غير أنها لم تتطرق تفصيلاً إلى موقع السنن من الخوارق أو كيفية فهم المعجزة والكرامة ضمن المنظور السنني.

يمكن القول إنّ الدراسات السابقة ركزت أساساً على:

- تعريف السنن وتقعيدها
- آثارها السلوكية والاجتماعية
- ضوابط استخراجها من النصوص

بينما لم تُعالج بشكل مباشر سؤال: كيف تُفهم المعجزة والكرامة في ضوء السنن الإلهية؟ وهو ما تحاول هذه الدراسة معالجته بالربط بين الخارق والسنني داخل التصور القرآني.

حدود البحث:

تحدد حدود البحث في الاقتصار على تحليل العلاقة بين السنن الإلهية والمعجزة والكرامة من منظور قرآني، دون الخوض في تفاصيل الخلاف الكلامي أو السرد التاريخي لوقائع الخوارق إلا بالقدر الذي يخدم الإطار السنني للبحث، كما لا يُقارن البحث بين المدارس العقدية في هذه المسألة.

خطة البحث:

بُني البحث وفق الخطة الآتية: مقدمة تبين الإشكالية وأهميتها وأهدافها ومنهجها وحدودها، ثم مبحث أول يتناول تعريف السنن الإلهية وأنواعها، يليه مبحث ثانٍ يتناول تعريف المعجزة والكرامة وعلاقتها بالسنن الإلهية والكونية، ثم خاتمة تتضمن أبرز النتائج.

2. تعريف السنن الإلهية وأنواعها

1.2. تعريف السنن الإلهية لغة واصطلاحاً:

جاء في لسان العرب: "وسنها الله للناس أي بينها، وسن الله سنة، أي بين طريقاً قويمًا" وقال أيضاً: "والسنة: السيرة، حسنة كانت أو قبيحة"⁽¹⁾.

ابن منظور، لسان العرب، 225/13.

قال الراغب الأصفهاني: "السنن؛ جمع سنة، وسنة الوجه: طريقته، وسنة النبي: طريقته التي كان يتحرّأها، وسنة الله تعالى: قد تقال لطريقة حكمته، وطريقة طاعته"⁽¹⁾.

وقال أحمد الفيومي السنة: "الطريقة، والسنة السيرة حميدة كانت أو ذميمة والجمع سنن مثل: غرفة وغرف"⁽²⁾.

أما السنن اصطلاحاً عرفت السنة بتعريفات مختلفة، بحسب الأغراض، فتعريف السنة في اصطلاح المحدثين يختلف عنه في اصطلاح أهل الفقه وكذا الأصوليين.

فالسنة عند المحدثين هي: "كل ما أثر عن الرسول ﷺ، من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خلقية أو سيرة، سواء أكان قبل البعثة كتحنثه في غار حراء أم بعدها"⁽³⁾.

والسنة بهذا المعنى مرادفة للحديث النبوي.

والسنة عند الأصوليين: "هي كل ما صدر عن النبي ﷺ غير القرآن الكريم من قول أو فعل أو تقرير مما يصلح أن يكون دليلاً لحكم شرعي"⁽⁴⁾.

وفي اصطلاح الفقهاء: هي كل ما ثبت عن النبي ﷺ ولم يكن من باب الفرض ولا الواجب وتقابل الواجب وغيره من الأحكام الخمسة، "وتطلق على ما يقابل البدعة، كقولهم: فلان من أهل السنة"⁽⁵⁾.

أما تعريف السنن الإلهية في الفكر الإسلامي

فيعرفها عبد الكريم زيدان بقوله: "هي الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة"⁽⁶⁾.

وذهب مجدي عاشور: "سنة الله هي ما اطرد من فعل الله في معاملة الأمم بناء على أفعالهم وسلوكهم وموقفهم من شرع الله وأثر ذلك في الدنيا والآخرة"⁽⁷⁾.

وعرفه محمد علي الصلابي: "السنن الربانية هي أحكام الله تعالى الثابتة في الكون، وعلى الإنسان في كل زمان ومكان"⁽⁸⁾.

(1) الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، 439.

(2) الفيومي، المصباح المنير، 291/1.

(3) عجاج الخطيب، أصول الحديث، 19.

(4) الشوكاني، إرشاد الفحول، 95.

(5) الشوكاني، إرشاد الفحول، 95.

(6) زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، 13.

(7) مجدي عاشور، السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم، وأصول وضوابط، 36.

(8) الصلابي، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، 103.

أما الدكتور رشيد كهوس؛ فقد أورد مجموعة من التعاريف في السنن الإلهية من بينها: السنن الإلهية هي: " الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر - بناء على سلوكهم وتصرفاتهم وأفعالهم - والنظام الذي أقام الكون والحياة، والقوانين التي بثها في هذا الوجود وأخضع لها جميع مخلوقاته "(1). ويعرفها بوعبيد صالح الازدهار والذي ورد فيه: " السنن هي السير والطرق والقوانين الإلهية العامة والثابتة التي سنّها الله عز وجل في هذا الكون لتحكم أحوال البشر وسلوكاتهم وفق سنن جارية وعامة لكل البشرية، يجري حكمها على الجميع دون تمييز ولا محاباة "(2). وذهب الأستاذ حسين شرفة في تعريفه للسنن الإلهية بالقول: هي " مجموعة من القوانين والقواعد الثابتة والمطرودة التي تحكم حياة الخلق وحركة التاريخ في نظام دقيق ترتبط فيه المقدمات - سلبا وإيجابا - بالنتائج بمقتضى حكمة الله تعالى وعدله "(3).

2.2. أنواع السنن الإلهية:

تنقسم السنن الإلهية باعتبار تعلقها بالموجودات في وجودها المادي، والثانية باعتبار العلاقات القائمة بين هذه الموجودات، إلى سنن كونية وسنن ربانية اجتماعية، والإرتباط بين سنن الله في الكون وحياة الناس ناتج لارتباط العلاقة بين الإنسان والكون، يقول سيد قطب: " فالناموس الكوني الذي يحكم الليل والنهار، يربط به سعي الناس للكسب، وعلم السنن والحساب، ويرتبط به كسب الإنسان من خير وشر وجزاؤه على الخير والشر، وترتبط به عواقب الهدى والضلال... ويرتبط به وعد الله ألا يعذب حيث يبعث رسولا، وترتبط به سنة الله في إهلاك القرى بعد أن يفسق فيها مترفوها، وترتبط به مصائر الذين يطلبون العاجلة والذين يطلبون الآخرة، وعطاء الله لهؤلاء وهؤلاء في الدنيا والآخرة كلها تمضي وفق ناموس ثابت وسنن لا تتبدل، ونظام لا يتحول، فليس شيء من هذا كله جزافا "(4).

السنن الكونية:

هي السنن التي لها علاقة بالكون المادي، كحركة الكواكب، والشمس والقمر، والإنسان في جانبه المادي وغير ذلك، فأيات الله في الكون المنظور يجري أمرها على السنن التي قدرها الله في علمه الأزلي، وعلاقة الأسباب بالمسببات في السنن الكونية واضحة بينة ومضبوطة، إذا عرفناها أمكننا الحكم بدقة على نتائجها وميقات هذه النتائج، فالماء مثلا يتجمد إذا بلغت درجة برودته صفر درجة، ويصل إلى الغليان إذا وصلت درجة حرارته إلى مئة درجة، والمطر ينزل عند وجود السحاب وهكذا، والقرآن الكريم مليء بالقضايا الكونية.

(1) كهوس، تدبر السنن الإلهية عند السلف الصالح، 13.

(2) بوعبيد، السنن الاجتماعية ومنطق التدافع والتعارف الحضاري، 36.

(3) حسين شرفة، سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة، 58.

(4) سيد قطب، في ظلال القرآن، 2216/4.

السنن الربانية:

إن أسباب الأحداث الاجتماعية بمختلف أنواعها من سياسية، واقتصادية، وحضارية، وعمرانية، وغلبة ونصر وهزيمة وخذلان، هي أسباب دقيقة وكثيرة ومتشعبة ومتشابكة، وقد يعسر على الكثيرين الإحاطة بها تفصيلاً، ولكن مع هذا العسر، يمكن للمتأمل الفاحص الدقيق أن يعرفها ويحيط بها علماً، كما يمكنه الجزم بحصول نتائج معينة بناء على أسباب معينة وإن لم يمكنه الجزم بميعاد حصول هذه النتائج.

3. مفهوم المعجزة والكرامة وعلاقتها بالسنن الإلهية والكونية

1.3. تعريف المعجزة في اللغة والاصطلاح:

المعجزة مفرد وجمعها معجزات، وهي مشتقة من الفعل الثلاثي عجز، بمعنى ضعف، والعجز ضد القدرة، وعجز عن الأمر إذا فاتته وقصر عنه وعن طلبه وإدراكه⁽¹⁾. قال ابن منظور: "العجز نقيض الحزم، عجز عن الأمر يعجز، وعجز عجزاً فيهما... والمعجزة بفتح الجيم وكسرهما مفعلة من العجز: عدم القدرة... وقال الليث: أعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه"⁽²⁾.

وقال الرازي: "العجز بضم الجيم مؤخر الشيء يذكر ويؤنث، وهو للرجل والمرأة جميعاً، وجمعه أعجاز، والعجيزة للمرأة خاصة، والعجز الضعف... وأعجزه الشيء فاتته، وعجزه تعجيزاً ثبطه أو نسبه إلى العجز، والمعجزة واحدة معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام"⁽³⁾.

وقال الشيخ عبد الرزاق عفيفي: "المعجزة: كل ما لم تبلغه طاقة البشر، ولم يقع في دائرة قدرتهم فهو معجزة، وقد تطلق المعجزة على ما خرج عن طاقة العامة من الخلق دون الخاصة؛ كبعض المسائل العملية، واختراع بعض الآلات والأجهزة الحديثة، وغيرهما مما لا يقوى عليه إلا خواص الناس؛ كالغوص والسباحة، وحمل الأثقال، وهذا عجز شيء يكون في مخلوق دون آخر"⁽⁴⁾.

أما المعجزة في الاصطلاح: فعرف العلماء المعجزة بتعاريف عدة متقاربة أحياناً، مع بعض الاختلاف في اللفظ والمراد أحياناً أخرى، ومن هذه التعاريف: قال الجرجاني: "المعجزة: أمر خارق للعادة، داع إلى الخير والسعادة، مقرون بدعوى النبوة، قصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول من الله"⁽⁵⁾.

(1) انظر: الرازي، مختار الصحاح، 414، الفيروآبادي، القاموس المحيط، 181/2.

(2) ابن منظور، لسان العرب، 369/5 وما بعدها.

(3) الرازي، مختار الصحاح، 414.

(4) عفيفي، مذكرة التوحيد، 60.

(5) الجرجاني، التعريفات، 282.

وقال القاضي عبد الجبار: "أمر واقع من الله تعالى، تنتقض به العادة، ويتعذر على العباد فعله، خاص بمدعي النبوة، على وجه التصديق له"⁽¹⁾.

وقال الرازي: "المعجزة عرفاً أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، مع عدم المعارضة"⁽²⁾. ومعنى المعجزات في القرآن الكريم، تسمى المعجزات عند العلماء والنظار بأسماء عدة أشهرها؛ المعجزات، كما يطلق عليها اسم "دلائل النبوة"، و"أعلام النبوة"، و"علامات النبوة"، وهذه الإطلاقات والتسميات في تضاعيف كتب ومؤلفات العلماء كثيرة⁽³⁾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله: "ويسمى من يسميها من النظار (معجزات) وتسمى (دلائل النبوة)، و(أعلام النبوة)، وهذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء، كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات، ولهذا لم يكن لفظ المعجزات موجوداً في الكتاب والسنة، وإنما فيه لفظ (الآية) و(البينة) و(البرهان)"⁽⁴⁾.

ولم يرد في القرآن الكريم لفظ (معجزة)، لكن وردت ألفاظ من قبيل لفظ (آية) و(بينة) و(برهان) ونحو ذلك، لها دلالة المعجزة نفسها، إلا أنها.. أي الألفاظ. أستخدمت للدلالة على معاني أخرى، فالألفاظ المذكورة استعملها القرآن في عدة معاني من جملتها المعجزة، ويظهر من خلال الالتفات للمعاني التي تكتنزها تلك الألفاظ (آية بمعنى العلامة، وبينة بمعنى الوضوح، وبرهان بمعنى الدليل الواضح)، فمعجزات الأنبياء هي: علامات خاصة وأدلة واضحة على سفارتهم الإلهية لا تبقى معها أي مجال للشك والترديد، قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [سورة هود: الآية 64]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [سورة الأعراف: الآية 73]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [سورة الإسراء: الآية 101]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ * اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [سورة القصص: الآية 31.32].

وبالنظر إلى ذلك، فقد أكد القرآن الكريم في هذه الآيات الكريمات ومثيلاتها على جملة من خصوصيات المعجزة، وهي كونها آية وبينة وبرهان، ولعل السر وراء ذلك هو بيان أن هذه الخصوصيات المشار إليها تجعل دلالة المعجزة على صدق دعوى النبوة الإلهية غاية في الوضوح.

فآيات الأنبياء إذاً سميت بالمعجزات؛ لأنها تعجز العقل عن تفسيرها، كما أنها تعجز المرسل إليهم عن مجاراتها، والإتيان بمثلها، وهي آيات وبيّنات وبراهين أيضاً لبيان صدق الرسل وما جاؤوا به، فالتنوع في

(1) عبد الجبار بن أحمد، المغني في أبواب التوحيد والعدل، 199/15.

(2) السفاريني، لوامع الأنوار، 290/2.

(3) انظر: البيهقي، دلائل، 90/1. وابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، 365/2. والسفاريني، لوامع الأنوار، 290/2.

(4) ابن تيمية، الجواب الصحيح، 412/2.

العبارات لا اختلاف في الاعتبار⁽¹⁾. فأكثر الألفاظ استعمالاً في القرآن هو "الآية" وقد فرق بعض العلماء بينها وبين المعجزة من جهة أخرى، قال الشيخ زروق "ورأيت في الوسيلة للعقباني فيما أظن أن ما وقع من الخوارق قبل النبوة للنبي يسمى كرامة وبعدها ولم يتحد به يسمى آية وبعدها وتحدى به فهو المعجزة"⁽²⁾.

2.3. مفهوم الكرامات في اللغة والاصطلاح:

جاء في لسان العرب: الكَرِيم من صفات الله وأسمائه، وهو الكثير الخير الجواد المِعْطِي الذي لا يَنْفَدُ عَطَاؤُهُ، وهو الكريم المطلق، والكريم الجامع لأنواع الخير والشرَف والفضائل، والكريم اسم جامع لكل ما يُحْمَد، فالله عز وجل كريم حميد الفِعال، ورب العرش الكريم العظيم؛ ... والكَرَم نقيض اللُّؤْم يكون في الرجل بنفسه وإن لم يكن له آباء، ويستعمل في الخيل والإبل والشجر وغيرها من الجواهر إذا عنوا العِتْق، وأصله في الناس، قال ابن الأعرابي: كَرَمُ الفرس أن يَرِقَّ جلده ويلين شعره وتطيب رائحته، وقد كَرَمَ الرجل وغيره بالضم كَرَمًا وكرامة، فهو كَرِيم وكَرِيمَةٌ وكِرْمَةٌ ومَكْرَم ومَكْرَمَةٌ⁽³⁾.

وفي مختار الصحاح (كرم): الكَرَمُ بفتحتيْن ضد اللؤم، وقد كَرَمَ بالضم كَرَمًا فهو كَرِيمٌ، وقوم كِرَامٌ وكِرْمَاءٌ ونسوةٌ كِرَائِمٌ ورجل كَرَمٌ... والمَكْرَمَةُ واحدة المَكَارِمِ، والمَكْرَمُ: المكرمة عند الكسائي، وعند الفراء هو جمع مكرمة، والأَكْرَمَةُ من الكرم كالأعجوبة من العجب، والتَكْرُمُ تكلف الكرم، وقال:

تكرم لتعتاد الجميل فلن ترى *** أذا كرم إلا بأن يتكرما

وأكرمَ الرجل أتى بأولاد كرام، واستكْرَمَ استحدث علما كريما، والتكْرِيمُ والإكْرَامُ بمعنى، والاسم منه الكَرَامَةُ، ويقال: حمل إليه الكرامة...⁽⁴⁾.

وفي تاج العروس: "الكرم محرّكة ضد اللؤم... وكارمه: فاخره في الكرم (فكرمه كنصره)؛ أي (غلبه فيه)؛ أي الكرم، (وأكرمه) إكراما (وكرمه) تكريما (عظمه ونزهه) والاسم منهما الكرامة، قال أبو المثلّم: "ومن لا يكرم نفسه لا يكرم"، وقيل: الإكرام والتكريم أن يوصل إلى الإنسان بنفع لا تلحقه فيه غضاضة، أو يوصل إليه بشيء شريف، وقال الشاعر:

إذا ما أهان امرؤ نفسه *** فلا أكرم الله من أكرمه⁽⁵⁾.

أما الكرامة في الاصطلاح: عرفها المناوي بقوله: "الكرامة اسم للإكرام، وهو إيصال الشيء الكريم أي النفيس إلى المكرم..."⁽⁶⁾، وقال الجرجاني: "الكرامة هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير

(1) ينظر: البغدادي، أصول الدين، 170. وأحمد فريد، الثمرات الزكية في العقائد السلفية، 189.

(2) شهاب الدين، شرح زروق على متن الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، 58/1.

(3) ابن منظور، لسان العرب، مادة (كرم)، 510/12.

(4) الرازي، مختار الصحاح، 586.

(5) الزبيدي، تاج العروس، 7874. وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، 27/7.

(6) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، 601.

مقارن لدعوى النبوة، فما لا يكون مقرونا بالإيمان والعمل الصالح يكون استدراجاً، وما يكون مقرونا بدعوى النبوة يكون معجزة⁽¹⁾.

قال الكفوي: "وكل خارق ظهر على يد النبي ÷ بعينه فهو من باب الكرامات، والأنبياء قبل البعثة لا يخرجون عن درجة الأولياء، وظهور الكرامات على يد الأولياء جائز عندنا، ومعجزة النبي يراها المسلم والكافر، والمطيع والعاصي وأما كرامة الولي فلا يراها إلا مثله، ولا يراها الفاسق⁽²⁾.

قال الشيخ بن عجيبة في أنواع الكرامة: «وهي نوعان: الكرامة الحسية: هي خرق الحس العادي، كالمشي على الماء، والطيران في الهواء، وطى الأرض، ونبع الماء، وجلب الطعام، والاطلاع على المغيبات وغير ذلك من خوارق العادات.

والكرامة المعنوية: هي استقامة العبد مع ربه في الظاهر والباطن، وكشف الحجاب عن قلبه حتى عرف مولاه، والظفر بنفسه ومخالفة هواه، وقوة يقينه وسكونه وطمأنينته بالله، والمعتبر عند المحققين هي هذه الكرامة⁽³⁾.

تبين من هذا أن الكرامة أمر خارق للعادة تظهر على يد من تولاه الله سبحانه، فمن هو الولي والولاية؟

3.3. المعجزات والكرامات من منظور السنن الإلهية والكونية:

نتبين تحرير المسألة من زاوية السنن الإلهية والكونية وفق ما يلي:

- المعجزات والكرامات خارقة للعادة وليست للعقل: إن وقوع المعجزات على يد الأنبياء والكرامات على يد الأنبياء والأولياء وغيرها من خوارق العادات ليس مصادماً للعقل أبداً، ذلك أنه راجع إلى قدرة الله المطلقة أن يفعل ما يشاء، فكما لا يعجزه أن يصطفي من الناس رسلاً يوحى إليهم ما يشاء لا يعجزه أن يظهر عليهم آيات خارقة لمعتاد الناس علامة على نبوتهم، وما خلق الكون كله إلا معجزة يصطدم بها العقل أنى ولى وجهه. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (سورة البقرة: الآية 164). فتصاريف الله سبحانه في الكون أكثر إعجازاً من خوارق تظهر بالتبع على يد الأخيار: أنبياء أو أولياء كانوا. فالنبوة هي أصل المعجزة، والولاية هي أصل الكرامة. ولا تحصل المعجزة الخارقة للعادة - التي هي أصل الكرامة في الجنس - إلا مع النبوة الصادقة، كما أن الكرامة الخارقة للعادة لا تحصل للولي إلا بمتابعته لشرع نبيه.

(1) الجرجاني، التعريفات، 235.

(2) الكفوي، الكليات، 433.

(3) ابن عجيبة، إيقاظ الهمم، 336.

فالمعجزة إذاً دليلٌ على النبوة الصادقة. والكرامة دليلٌ على صدق الشاهد بالنبوة الصادقة. ويجمعهما كما يقول ابن تيمية: أنهما آية الله الخارقة الدالة على النبوة الصادقة. فهما من جنس واحد⁽¹⁾. ولكن لا يلزم من هذا أن تكون المعجزة والكرامة متساويتين في الحدّ والحقيقة؛ فأيات الله لا يُحاط بها علماً، كما أنه - جلّ وعلا - لا يُحيطون به علماً إلا بما شاء سبحانه وتعالى. ومن آيات الله تعالى ما هي آيات كبرى، ومنها ما هي آيات صغرى. فالآيات الكبرى لا تكون إلا للأنبياء والمرسلين، وهي التي وجب على الناس الإيمان بمقتضاها، وهي التي يُطلق عليها اسم المعجزات. والآيات الصغرى لا تصل إلى درجة سابقتهما، ولا تبلغ مبلغها في الحدّ ولا في الحقيقة، وهي التي يُطلق عليها اسم الكرامات. ولما كانت الآيات الكبرى والصغرى من جنس واحد، وكان من خواصهما خرق العادة، كان من الواجب أن يكون خرق العادة فيهما مخالفاً لسنن الطبيعة، وخواص المادة، وقانون الأسباب والمسببات⁽²⁾.

ولا ريب أن من شرط آيات الأنبياء عليهم السلام أن تكون خارقة للعادة وألا تكون معتادة للناس، وإن كان ليس دليل النبوة الوحيد⁽³⁾. كما في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية 69] فأفقدتها الحق سبحانه خاصية الإحراق، خرقتا لمعتاد الناس في طبيعة النار المحرقة. وكما أوجد عيسى من أم بلا أب. وكذا في الكرامات ذكر الحق سبحانه أصحاب الكهف فقال: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [سورة الكهف: الآية 25] نائمين لم يناولوا طعاماً ولا شرباً. وذكر عن صاحب سليمان أنه أتاه بعرش بلقيس قبل أن يرتد إليه طرفه. في قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [سورة النمل: الآية 40].

وأيضاً ذكر عن مريم أنها كانت: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة آل عمران: الآية 37] إلى غير ذلك من الكرامات التي تحكيها كتب السنة والتفسير. التي هي خرق لأحكام العادة وليست لأحكام العقل.

قال محمد عبده: "المعجزة ليست من نوع المستحيل عقلاً، فإن مخالفة السير الطبيعي المعروف في الإيجاد مما لم يقدّر دليل على استحالة؛ بل ذلك مما يقع، كما يشاهد في حال المريض، يمتنع من الأكل مرة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات، مع وجود العلة التي تزيد الضعف وتساعد الجوع على الاتلاف. فإن قيل: إن ذلك لا بد أن يكون تابعاً لناموس آخر طبيعي. قلنا: إن واضع الناموس هو موجود الكائنات،

(1) ابن تيمية، النبوات، 40/1.

(2) نفسه، 40/1.

(3) نفسه، 173/1.

فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات، غاية ما في الأمر أننا لا نعرفها، ولكننا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضله من عنده⁽¹⁾.

فجماع الأمر أن العقل إذا زكي بالشرع لا يمنع وقوع المعجزة والكرامة باعتبار أنهما خرق للعادة بل يقر بإمكان ذلك لأن خالق الكون يوجب العقل قدرته على كل شيء ولا دليل على استحالة وقوع ذلك. ولذلك قال أبو زهرة: "إن كل شيء أخبر الشارع بوقوعه فهو في دائرة الإمكان، ومن يدعي الاستحالة فعليه البيان"⁽²⁾.

فهذا هو الأصل في جواز الخوارق عقلاً، ذلك أن الناظر المتأمل لا يجد في جواز وقوع المعجزة مصادمة مع مقتضى العقل، ولا مخالفة لقوانينه، إذ أن المعجزة لا تعدو عن كونها خارقة للعادة، خارجة عن سنن الله في خلقه، لا يقوى عليها من كلف باتباع الرسل من الجن والإنس، وخرق العادة ومخالفة السير الطبيعي المعروف في الإيجاد، مما لم يقدّم دليل على استحالة عقلاً⁽³⁾.

فإن مخالفة السنن الكونية المعروفة مما لم يقع دليل على استحالة عقله، فهي وإن كانت مخالفة للعادة داخلية في نطاق الممكنات العقلية، ولا يلزم أن يكون المخالف لسنن الكون مخالفاً للعقل؛ أي محالاً. وعليه: إن المعجزة التي جاء بها الأنبياء خارقة لأحكام العادة، وليست خارقة لأحكام العقل، فلا يحكم العقل ببطالان ما يخالف أحكام العادة، بل يؤمن بعدم انكسار الزجاج إذا رمي بالحجر، ويؤمن بعدم حرق الإنسان عند دخوله النار، ويؤمن بنبع الماء من بين أصابع الإنسان، ويؤمن بتسبيح الحصى، وحنين الجذع؛ لأن ذلك كله ليس خارقاً لأحكامه، بل هو خارق لأحكام العادة، وهو حينما يؤمن بهذا لا يؤمن به على أنه أمر عادي، بل يؤمن به على أنه أمر غير عادي، أي مخالف لأحكام العادة، ثم يذهب بعد هذا يطلب سبباً لهذا الخارق للعادة، حتى يصل إلى الحقيقة، إما معجزة نبي، أو سحر ساحر، أو شعوذة مشعوذة⁽⁴⁾. وما النبوة كلها في نهاية المطاف إلا خرق للعادة فلا يكون مستلزماً لها إلا خارق للعادة⁽⁵⁾.

- الخوارق، بين عادة الله ومعتاد الخلق:

إن المعجزات والكرامات يجوز وقوعها عقلاً كما سبق وهي خرق لمعتاد الناس وليس خرق لعادة الله التي من عادته وقوع الخوارق، ذلك أن العادة أمر إضافي ولا تتخلف بذلك عادة الله التي هي سنته، فسنة الله سبحانه من خواصه كما سبق اثباته عدم التبديل والتغير، وهو الذي صرحت به الآيات. قال الحق سبحانه: (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) [سورة الأحزاب: الآية 62].

(1) محمد عبده، رسالة التوحيد، 89.

(2) أبو زهرة، الاسراء والمعراج، 22.

(3) الربيع، علم التوحيد، 115. بتصرف يسير.

(4) الرومي، منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، 571. بتصرف يسير.

(5) ابن تيمية، الجواب الصحيح، 504/6.

قال ابن عاشور "وصف تلك السنة بأنها راسخة فيما مضى أعقب ذلك بوصفها بالتحقق في المستقبل تعميما للأزمنة بقوله: ولن تجد لسنة الله تبديلا"⁽¹⁾.

وقال عز وجل: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [سورة فاطر: الآية 43]. قال الطبري: "ولن تجد لسنة الله في خلقه تبديلا يقول: لن يغير ذلك ولا يبدله؛ لأنه لا مرد لقضائه"⁽²⁾.

فمن قضاء الله سنته التي لا تتبدل ولا تتغير. وإنما معتاد الخلق من يعتريه تغيير، قال ابن تيمية محققا ذلك: "والتحقيق: أنّ العادة أمرٌ إضافي؛ فقد يعتاد قومٌ ما لم يعتده غيرهم. فهذه إذا خرقت، فليست لصدق النبي لا توجد بدون صدقه. والرب تعالى في الحقيقة لا ينقض عادته التي هي سنته"⁽³⁾.

فالمعجزات ونحوها من خوارق العادات ليس خرق لعادة الله التي هي سنته كما يوهم كلام بعض أهل العلم في المسألة، مثل قول الطوفي: "واطراد العادة حجة، ولذلك كان انخراطها للأنبياء معجزا"⁽⁴⁾.

فسنة الله لا تتبدل ولا تتغير ولا تنخرق. قال الله تعالى: ﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة فصلت: الآية 53].

(في الأفاق) ما أخبر الله تعالى به من آياته في السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ، وَذَلِكَ من رفع السَّمَاءِ، وَخَلْقِ الْكَوَاكِبِ، ودوران الفلك، وإضاءة الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَمَا أَشَبَهَ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ بسط الأرض، وَنصب الجبال، وتفجير الأنهار، وغرس الأشجار، إِلَى مَا لَا يُحْصَى"⁽⁵⁾.

فغاية ما هنالك الخلط بين سنة الله الكونية ومعتاد الخلق، ولذلك وقع في الزلل أقوام فأنكروا الخوارق بحجة أن سنة الله جارية والمعجزات والكرامات خرق لتلك السنة، فالتحقيق أن سنة الله سبحانه أن تظهر هذه الخوارق لأسباب ارتضاها. وإنما تنخرق العادة وهي أمر إضافي كما سبق القول.

- من سنة الله تمييز من يختار من الخلق بميزات:

إن من سنة الله سبحانه أن يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس، وتمييز الصالحين عن الطالحين ترغيبا للخلق في الصلاح ومكرمة للصالح. ذلك أن من سنة الله سبحانه الجارية التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين فهو سبحانه إذا ميّز بعض المخلوقات بصفات يمتاز بها عن غيره، ويختصه بها، قرن بذلك من الأمور ما يمتاز به عن غيره، ويختص به. ولا ريب أنّ النبوة يمتاز بها الأنبياء، ويختصون بها، وهو أعلم حيث يجعل رسالته. فمن خصه بذلك، كان له من الخصائص التي لا تكون لغيره، ما يناسب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 183/26.

(2) الطبري، جامع البيان، 484/20.

(3) ابن تيمية، النبوات، 867/2 وما بعدها.

(4) الطوفي، الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية، 394.

(5) ينظر: السمعاني، تفسير القرآن، 61/5. والماوردي، النكت والعيون، 189/5.

ذلك؛ فيُستدل بتلك الخصائص على أنه من أهل الاختصاص بالنبوة. وتلك سنته وعادته في أمثاله؛ يُميّزهم بخصائص يمتازون بها عن غيرهم، ويعلم أن أصحابها من ذلك الصنف المخصوص الذين هم الأنبياء مثلاً. سنة الله وعادته ولم تكن له سبحانه عادة؛ بأن يجعل مثل آيات الأنبياء لغيرهم، حتى يقال: إنه خرق عادته ونقضها، بل عادته وسنته المطردة أن تلك الآيات لا تكون إلا مع النبوة، والإخبار بها، لا مع التكذيب بها، أو الشك فيها. كما أن سنته وعادته: أن محبته، ورضاه، وثوابه لا يكون إلا لمن عبده وأطاعه، وأن سنته وعادته أن يجعل العاقبة للمتقين، قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الأعراف: الآية 128] وقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة هود: الآية 49].

وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقَوَى﴾ [سورة طه: الآية 123]. وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة القصص: الآية 83]

وسنته وعادته أن ينصر رسله، والذين آمنوا؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [سورة غافر، الآية 51].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس، الآية 103]. فسنة الله لا تتبدل ولا تتغير، قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [سورة الإسراء، الآية 77] وقال: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَدْبَارُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

وكل ما يُظن أنه خرقه من العادات، فله أسباب انخرقت فيها تلك العادات. فعادته وسنته لا تتبدل؛ إذ أفعاله جارية على وجه الحكمة والعدل. هذا قول الجمهور⁽¹⁾. ذلك أن قانون السببية يوجب أن كل خرق للعادة فهو لسبب معين. والله سبحانه من سنته إظهار الخوارق على يد من شاء من خلقه.

فسنة الله سبحانه هاهنا تميز الأنبياء بالمعجزات وإظهار الكرامة على من شاء من أوليائه. وبيان ذلك ما يلي:

. من سنة الله إرسال الرسل إلى الأمم وتفضيل بعضهم على بعض: فمن سنن الله تعالى الإلهية تواتر الرسل إلى الخلق فلا تخلو أمة من نبي أو رسول، قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة المؤمنون: الآية 44] وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ

(1) ابن تيمية، النبوات، 867/2 وما بعدها. يتصرف.

مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ [سورة النحل: الآية 36]، وقال أيضاً: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) [سورة فاطر: الآية 24]، وقال أيضاً (.. اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ..) [سورة الأنعام: الآية 124]

قال الطبري في تفسير الآية: "وما من أمة من الأمم الدائنة بملة إلا خلا فيها من قبلك نذير يندبرهم بأسنا على كفرهم بالله"⁽¹⁾. وكما أن من سنة الله إرسال الرسل وتكريم الصالحين فمن سنته تفضيل بعضهم على بعض في جنس المعجزة والكرامة الدالة على تمييزها، فقد تنوعت آيات الأنبياء، وتنوعت الكرامات، بل النبي الواحد تنوع آياته، فليس القرآن الذي هو قول الله وكلامه من جنس انشقاق القمر، ولا هذا وهذا من جنس تكثير الطعام، والشراب؛ كنعب الماء من بين الأصابع. وهذا كما أن آيات الرب الدالة على قدرته، ومشيتته، وحكمته، وأمره، ونهيته، لا تختص بنوع، فكذلك آيات أنبيائه. ولكن خاصتها أنها لا تكون إلا مستلزمة لصدق النبي، وصدق الخبر بأنه نبي، فلا تكون لمن يكذبه قط. وهكذا وكرامات الأولياء من آيات الأنبياء الصغرى ولا يقدر أحد من مكذبي الرسل أن يأتي بمثل آيات الأنبياء، وأما مصدقوهم فهم معترفون بأن ما يأتون به هو من آيات الأنبياء، مع أنه لا تصل آيات الأتباع إلى مثل آيات المتبوع مطلقاً، وإن كانوا قد يشاركونه في بعضها؛ كإحياء الموتى، وتكثير الطعام، والشراب؛ فلا يشركونه في القرآن، وفلق البحر، وانشقاق القمر؛ لأن الله فضل الأنبياء على غيرهم، وفضل بعض النبيين على بعض. فلا بد أن يمتاز الفاضل بما لا يقدر المفضول على مثله؛ إذ لو أتى بمثل ما أتى، لكان مثله، لا دونه⁽²⁾.

. من سنة الله جواز ظهور الكرامات على من شاء من أوليائه: من سنة الله الجارية أنه تعالى أجرى بعض كرامات أوليائه من الصالحين على خلاف عادة السنن الإلهية جزاء لاتباعهم لأنبياء الله تعالى. وهذا الخرق للعادة من أدلة الكرامة، لكنه ليس الدليل الوحيد بل لأبد من وجود الاستقامة على شرع الله تعالى لمن خرقت لأجله العادة، لأجل التمييز بين كرامات الأولياء وغيرها من الدجل الشيطاني وعمل السحرة⁽³⁾. كما أن خرق السنن للأولياء لا يرقى إلى مثل خرقها للأنبياء.

ومما ورد في القرآن الكريم قوله تعالى عن مريم عليها السلام: (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهَزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا) [سورة مريم: الآية 23-25] فمعتاد الناس أن هز جذع النخلة لا يمكن أن ينتج عنه سقوط الرطب، خاصة من امرأة في أضعف حالاتها بعد وضعها لمولودها، لكن الله تعالى خرق هذه السنة كرامةً لمريم بنت عمران.

(1) الطبري، جامع البيان، 460/20.

(2) ابن تيمية، النبوات، 865/2.

(3) ابن تيمية، جامع الرسائل، 196/1.

قال الشنقيطي: «والذي يفهم من سياق القرآن: أن الله أنبت لها ذلك الرطب على سبيل خرق العادة، وأجرى لها ذلك النهر على سبيل خرق العادة. ولم يكن الرطب والنهر موجودين قبل ذلك، سواء قلنا إن الجذع كان يابساً أو نخلة غير مثمرة، إلا أن الله أنبت فيه الثمر وجعله رطباً جنياً. ووجه دلالة السياق على ذلك أن قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [سورة مريم: الآية 26] يدل على أن عينها إنما تقر في ذلك الوقت بالأمور الخارقة للعادة؛ لأنها هي التي تبين براءتها مما اتهموها به"⁽¹⁾.

وأيضاً قصة أصحاب الكهف، قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْجِزَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: 9-12] فبقاء هؤلاء الفتية أحياء سالمين عن الآفات مدة ثلاثمائة سنة وتسع سنين وأنه تعالى كان يعصمهم من حر الشمس لهي كرامة عظيمة لهم⁽²⁾.

فإذا المعجزات والكرامات لا تخرج ولا تنقض السنة الكونية التي هي عادة الله سبحانه وتعالى، بل من ضمنها، فإن من عادة الله أن يخص أنبيائه بمعجزات تدل على صدقهم وعلامة على نبوتهم، كما أن من عادته أن يكرم أوليائه بكرامات ترفع درجاتهم وممّا منه سبحانه على من يشاء. فتلك نواميس الله سبحانه وتعالى في كونه وهذه سنته في خلقه. فقد ذكر القرآن الكريم وصحاح السنة معجزات كثيرة للأنبياء.

- أهداف خرق السنن الكونية بالمعجزة:

المعجزات التي يؤيد الله بها أنبياءه خرق للسنن الكونية، لتكون حججاً لهم على العباد أنهم رسل الله، إذ إن السنن الكونية لا يخرقها إلا الذي وضعها ورتبها وهو الله تعالى. فإذا جاء ذلك على يد من يدعي على الله أن الله أرسله، كان بينة على صدقه، حين أجرى الله ذلك على يده، ولا يجريه على يد من يدعي الرسالة كذباً عليه تعالى. ومن هنا فقد جاء أكثر رسل الله تعالى بمعجزات، أجريت على أيديهم، وشاهدها أقوامهم. كرّر الله تعالى ذكرها في كتابه، لتحصل الطمأنينة بصدقهم ويتم الانقياد لهم.

وقد يأتي خرق العادة إعداداً للنبي لتحمل تكاليف الدعوة، أو إظهاراً "من الله لكرامة نبيه عليه جزاء قيامه بتكاليف الدعوة، وبذل نفسه في سبيلها، كالإسراء بمحمد ﷺ. وقد يكون خرق العادة معونة من الله لنبيه على أداء تكاليف الدعوة، لضعفه عنها، كما في إنزال الملائكة للقتال يوم بدر، وفي حفظه نبيه ﷺ بستر شخصه عمن أراد اغتياله. ومثلها إنجاء أنبيائه من كيد أعدائهم بغير الأسباب المعتادة، كرفع عيسى، وفلق البحر لموسى"⁽³⁾. وما يقال في المعجزة يقال في الكرامة بجماع أنهما معا يشتركان في كونهما خرق للعادة.

(1) الشنقيطي، أضواء البيان، 4/315.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب، 21/431.

الأشقر، أفعال الرسول ج ودلائلها على الأحكام الشرعية، 1/252 بتصرف.

4. خاتمة

يُفضي النظر في موضوع المعجزة والكرامة من منظور السنن الإلهية والكونية إلى عدد من النتائج العلمية التي تُسهّم في إعادة بناء الفهم العقدي للخوارق بعيداً عن التمثلات الشائعة. فقد تبين أنّ المعجزة والكرامة وإن كانتا من قبيل خرق العادة عند البشر، فإنّ وقوعهما لا يخرج عن سنن الله تعالى الجارية في الكون والحياة، بل هما جزء من مقتضيات الحكمة الإلهية في التدبير، على نحو يجعل المعجزة علامة تصديق للرسالة، ويجعل الكرامة صورة من صور الإنعام الإلهي الخاص. وبهذا يتضح أنّ الخارق لا يُفهم بوصفه تعطيلاً لقوانين الله، بل بوصفه جرياناً لها وفق توقيت مخصوص وسياق محدد.

كما بيّنت الدراسة أنّ إدراج الخوارق ضمن إطار السنن الإلهية يتيح تجاوز ثنائية التعارض بين "السنني" و"الخارق" التي سادت في بعض التصورات الكلامية أو الشعبية، ويمكن من إعادة قراءة الظواهر الخارقة قراءةً متسقة مع مبدأ السببية القرآني الذي يقوم على الإيمان بأنّ الله سبحانه هو خالق الأسباب ومسببها، وهو القادر على خرقها بحكمته دون أن يكون ذلك خروجاً عن نظامه الكلي في الوجود.

وقد كشفت الدراسة أيضاً عن الحاجة إلى تمييز دقيق بين الظواهر الخوارقية المثبتة بالنصوص أو بالقرائن القطعية، وبين الروايات والحكايات التي تسربت إلى الثقافة الدينية دون تمحيص علمي، وما صاحبها من خلط بين الكرامة والادعاء أو بين الخارق والتوهم. وهو ما يستدعي إعادة ضبط مفهوم الكرامة ضمن محددات شرعية وعقدية واضحة، لتفادي التوسع غير المنضبط في نسبة الخوارق إلى الأشخاص أو الجماعات، ولصون مبدأ السنن من التشويه الذي يترتب على ذلك.

إنّ إعادة بناء هذا الملف على أساس سنني لا تُعدّ مجرد معالجة عقدية، بل تحمل آثاراً معرفية وحضارية، من أهمها استعادة مركزية مبدأ السببية في الوعي الإسلامي، الذي يشكّل أحد روافد الفاعلية الحضارية في القرآن الكريم، وربط الإيمان بسنن الله بالسعي والعمل والأخذ بالأسباب، دون نفي إمكان الخارق ولا إنكاره، ودون جعله مدخلاً لتعطيل القوانين الإلهية أو تبرير العجز.

وتأسيساً على ذلك، يمكن التأكيد في ختام البحث على أنّ المعجزة والكرامة لا تمثلان تعطيلاً لسنن الله، بل تجريان ضمن مقتضياتها، وأنّ تحققهما لا يُثبت إلا بميزان منضبط قوامه النص الشرعي، والقرائن القطعية، وتواتر الخبر أو ما يقوم مقامه مما يورث الاطمئنان العلمي. وبهذا المنظور يمكن تحقيق الموازنة بين الإيمان بالخارق وبين احترام السنن الإلهية التي جاء القرآن بإقرارها، حفاظاً على التناسق العقدي والمعرفي في فهم الظواهر.

5. قائمة المراجع

- أحمد، فريد. (1989). الثمرات الزكية في العقائد السلفية. الدار السلفية – مكتبة التوعية الإسلامي.
- الأشقر، عبد الله. (2003/1424). أفعال الرسول ج ودلائلها على الأحكام الشرعية (ط6). دار الشروق.
- الباجوري. (n.d.). شرح جوهرة التوحيد. دار الرازي – عمان/الأردن.
- بوعبيد صالح الأزدهار. (2014/1435). السنن الاجتماعية ومنطق التدافع والتعارف الحضاري (ط1). دار الكلمة – القاهرة.
- البهقي. (1405). دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة (ط1). دار الكتب العلمية – بيروت.
- ابن تيمية. (2000/1420). النبوات (ط1). أضواء السلف – الرياض.
- ابن تيمية. (2001/1422). جامع الرسائل (ط1). دار العطاء – الرياض.
- ابن تيمية. (1985). الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ط1). دار البيان.
- ابن تيمية. (1999/1419). الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (ط2). دار العاصمة – السعودية.
- الجرجاني. (1983/1403). التعريفات (ط1). دار الكتب العلمية – بيروت.
- الجويني. (2000). الإرشاد (ط2). مكتبة الأزهرى.
- الرازي. (1995/1415). مختار الصحاح. مكتبة لبنان ناشرون – بيروت.
- الرازي. (1420). مفاتيح الغيب (التراث) (ط3). دار إحياء التراث العربى – بيروت.
- السفاريني. (1982/1402). لوامع الأنوار الهية... (ط2). مؤسسة الخافقين – دمشق.
- السمعاني. (1997/1418). تفسير القرآن (ط1). دار الوطن – الرياض.
- ابن سيده. (2000/1421). المحكم والمحيط الأعظم (ط1). دار الكتب العلمية – بيروت.
- الشنقيطي. (1995/1415). أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. دار الفكر – بيروت.
- الشوكاني. (n.d.). إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول (ط1). دار الكتاب العربى.
- الشوكاني. (n.d.). ولاية الله والطريق إليها. دار الكتب الحديثة – القاهرة.
- الصلابي، علي. (2008/1429). السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث (ط7). دار المعرفة – بيروت.
- الطاهر بن عاشور. (1984). التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر.
- الطبري. (2000/1420). جامع البيان في تأويل القرآن (ط1). مؤسسة الرسالة.
- عبد الجبار بن أحمد. (n.d.). المغني في أبواب التوحيد والعدل. المؤسسة المصرية للتأليف – القاهرة.
- عبد العزيز الربيعة. (1989). علم التوحيد (ط1). كلية الشريعة – جامعة الإمام.
- عبد القاهر الإسفراييني. (1928/1346). أصول الدين (ط1). مدرسة الإلهيات – إسطنبول.

- عبد الكريم الطوفي. (2005/1426). الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية (ط1). دار الكتب العلمية - بيروت.
- عبد الكريم زيدان. (1993/1413). السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية (ط1). مؤسسة الرسالة.
- عفيفي، عبد الرزاق. (1420). مذكرة التوحيد (ط1). وزارة الشؤون الإسلامية - السعودية.
- فتحي الدريني. (n.d.). النظم الإسلامية. دار الفكر.
- فهد الرومي. (1973/1403). منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير (ط2). الرياض.
- الكفوي. (n.d.). الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. مؤسسة الرسالة - بيروت.
- مجدي محمد عاشور. (1993/1413). السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم: أصول وضوابط (ط1). دار السلام - القاهرة.
- محمد رشيد رضا. (2005/1426). الوحي المحمدي (ط1). دار الكتب العلمية - بيروت.
- محمد عبده. (1994/1414). رسالة التوحيد (ط1). دار الشروق.
- محمد عجاج الخطيب. (1968). أصول الحديث علومه ومصطلحه (ط1). دار الفكر.
- محمد بن عجيبة. (n.d.). إيقاظ الهمم في شرح الحكم. دار المعارف.
- مرتضى الزبيدي. (n.d.). تاج العروس من جواهر القاموس (ط1). دار الهداية.
- المناوي. (1990/1410). التوقيف على مهمات التعاريف (ط1). عالم الكتب - القاهرة.
- ابن منظور. (1414). لسان العرب (ط3). دار صادر - بيروت.

6. Bibliography List

- Abduh, Muḥammad. (1994/1414). Risālat al-Tawḥīd, 1st ed. Dār al-Shurūq.
- Afifī, ‘Abd al-Razzāq. (1420). Mudhakkirah al-Tawḥīd, 1st ed. Wizārat al-Shu’ūn al-Islāmiyyah, Saudi Arabia.
- Aḥmad, Farīd. (1989). Al-Thamarāt al-Zakiyyah fī al-‘Aqā’id al-Salafiyyah. Al-Dār al-Salafiyyah & Maktabat al-Taw’iyyah al-Islāmiyyah.
- Al-Ashqar, ‘Abd Allāh. (2003/1424). Af’āl al-Rasūl ṣallā Allāhu ‘alayhi wa sallam wa Dalālatuhā ‘alā al-Aḥkām al-Shar’iyyah, 6th ed. Dār al-Shurūq.
- Al-Bājūrī. (n.d.). Sharḥ Jawharat al-Tawḥīd. Dār al-Rāzī, Amman, Jordan.
- Al-Bayhaqī. (1985/1405). Dalā’il al-Nubuwwah wa Ma’rifat Aḥwāl Ṣāḥib al-Sharī’ah, 1st ed. Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, Beirut, Lebanon.
- Al-Isfarāyinī, ‘Abd al-Qāhir. (1928/1346). Uṣūl al-Dīn, 1st ed. Madrasat al-Ilāhiyyāt, Istanbul, Turkey.
- Al-Jurjānī. (1983/1403). Al-Ta’rīfāt, 1st ed. Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, Beirut, Lebanon.

- Al-Juwaynī. (2000). Al-Irshād, 2nd ed. Maktabat al-Azhārī.
- Al-Kafawī. (n.d.). Al-Kulliyyāt: Mu‘jam fī al-Muṣṭalahāt wa al-Furūq al-Lughawiyyah. Mu‘assasat al-Risālah, Beirut, Lebanon.
- Al-Manāwī. (1990/1410). Al-Tawqīf ‘alā Muhimmāt al-Ta‘ārīf, 1st ed. ‘Ālam al-Kutub, Cairo, Egypt.
- Al-Māzinī al-Sam‘ānī. (1997/1418). Tafsīr al-Qur’ān, 1st ed. Dār al-Waṭan, Riyadh, Saudi Arabia.
- Al-Rabī‘ah, ‘Abd al-‘Azīz. (1989). ‘Ilm al-Tawhīd, 1st ed. Kuliyat al-Sharī‘ah, Imām University, Riyadh.
- Al-Rāzī. (1995/1415). Mukhtār al-Ṣiḥāḥ. Maktabat Lubnān Nāshirūn, Beirut, Lebanon.
- Al-Rāzī. (2000/1420). Mafātīḥ al-Ghayb (al-Tafsīr al-Kabīr), 3rd ed. Dār Iḥyā’ al-Turāth al-‘Arabī, Beirut.
- Al-Rūmī, Fahd. (1973/1403). Manhaj al-Madrasah al-‘Aqliyyah al-Ḥadīthah fī al-Tafsīr, 2nd ed. Riyadh.
- Al-Ṣalabī, ‘Alī. (2008/1429). Al-Sīrah al-Nabawiyyah: ‘Arḍ Waqā’i’ wa Taḥlīl Aḥdāth, 7th ed. Dār al-Ma‘rifah, Beirut, Lebanon.
- Al-Shawkānī. (n.d.). Irshād al-Fuḥūl ilā Taḥqīq al-Ḥaqq min ‘Ilm al-Uṣūl, 1st ed. Dār al-Kitāb al-‘Arabī.
- Al-Shawkānī. (n.d.). Wilāyat Allāh wa al-Ṭarīq ilayhā. Dār al-Kutub al-Ḥadīthah, Cairo, Egypt.
- Al-Shinqīṭī. (1995/1415). Aḍwā’ al-Bayān fī Īdāḥ al-Qur’ān bil-Qur’ān. Dār al-Fikr, Beirut, Lebanon.
- Al-Ṭabarī. (2000/1420). Jāmi‘ al-Bayān fī Ta’wīl al-Qur’ān, 1st ed. Mu‘assasat al-Risālah.
- Al-Ṭāhir Ibn ‘Āshūr. (1984). Al-Taḥrīr wa al-Tanwīr. Al-Dār al-Tūnisiyyah lil-Nashr.
- Al-Zabīdī, Murtaḍā. (n.d.). Tāj al-‘Arūs min Jawāhir al-Qāmūs, 1st ed. Dār al-Hidāyah.
- Al-Zaydān, ‘Abd al-Karīm. (1993/1413). Al-Sunan al-Ilāhiyyah fī al-Umam wa al-Jamā‘āt wa al-Afrād fī al-Sharī‘ah al-Islāmiyyah, 1st ed. Mu‘assasat al-Risālah.
- Bou‘bayd Ṣāliḥ al-Azdahār. (2014/1435). Al-Sunan al-Ijtimā‘iyyah wa Mantīq al-Tadāfu’ wa al-Ta‘āruf al-Ḥadārī, 1st ed. Dār al-Kalimah, Cairo, Egypt.
- Ibn ‘Aqībah, Muḥammad. (n.d.). Īqāz al-Himam fī Sharḥ al-Ḥikam. Dār al-Ma‘ārīf.

- Ibn al-‘Arabī al-Māwardī. (n.d.). Al-Nukat wa al-‘Uyūn. Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, Beirut, Lebanon.
- Ibn Manẓūr. (1993/1414). Lisān al-‘Arab, 3rd ed. Dār Ṣādir, Beirut, Lebanon.
- Ibn Sīda. (2000/1421). Al-Muḥkam wa al-Muḥīt al-A‘ẓam, 1st ed. Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, Beirut, Lebanon.
- Ibn Taymiyyah. (1985). Al-Furqān bayna Awliyā’ al-Raḥmān wa Awliyā’ al-Shayṭān, 1st ed. Dār al-Bayān.
- Ibn Taymiyyah. (1999/1419). Al-Jawāb al-Ṣaḥīḥ liman Baddala Dīn al-Masīḥ, 2nd ed. Dār al-‘Āsimah, Saudi Arabia.
- Ibn Taymiyyah. (2000/1420). Al-Nubuwwāt, 1st ed. Aḍwā’ al-Salaf, Riyadh, Saudi Arabia.
- Ibn Taymiyyah. (2001/1422). Jāmi‘ al-Rasā’il, 1st ed. Dār al-‘Aṭā’, Riyadh, Saudi Arabia.
- Khateeb, Muḥammad ‘Ajjāj. (1968). Uṣūl al-Ḥadīth ‘Ulūmuhu wa Muṣṭalaḥuhu, 1st ed. Dār al-Fikr
- Rida, Muḥammad Rashīd. (2005/1426). Al-Waḥy al-Muḥammadī, 1st ed. Dār al-Kutub al-‘Ilmiyyah, Beirut.